جذع مشترك علوم إنسانية

مقياس مدخل إلى الفلسفة العامة

المجموعة ب

الأستاذ: أمين طالبي، جامعة سطيف 2

المحاضرة الثالثة: في قيمة الفلسفة ومقاصدها

مُفتتح استشكالي:

لا يخفى على كلِّ ذي بالٍ أنَّ الفلسفة لها أهمية بالغة في كل الحضارات، وقد حازت على هذه المكانة حينما كانت الفلسفة تُعرف بأمّ العلوم وذلك لطابعها الشمولي في تناول القضايا، غير أنَّ هذه النَّظرة باتت تتقلَّص تدريجيًّا بعد انفصال العلوم عن الفلسفة -ولو كان هذا الانفصال إجرائيًّا- أضحَت الفلسفة لا تُمثِّل سوى ذاتها، وأدَّى هذا إلى تزايُد الشَّك حول أهمية الفلسفة وقيمتها في ظلّ انفصال العلوم واستقلالها، وقد لا يكفي أن نتساءل بقدر ما علينا أن نجرؤ على مُساءَلة التساؤل نفسه عن قيمة الفلسفة، فماذا بقي من الفلسفة في ظلِّ استقلال العُلوم عنها؟ ما القيمة المعرفية والإضافة النَّوعيَّة التي تقدمها الفلسفة اليوم؟ وهل الإنسان اليوم بحاجة إلى الفلسفة أصلاً؟

1) قيمة الفلسفة في ظل استقلال العلوم:

لعلَّ الحديث عن الفلسفة وقيمتها اليوم يرغمنا على الحديث عن دور التفكير الفلسفي في حياة الإنسان، والتفكير في الدرس الفلسفي وأيضًا الخطاب الفلسفي يقتضي مراجعة مفهوم الفلسفة وذلك بنقده ومراجعته لإعادة بناءه من جديد بما يتوافق وخصوصيات العصر. وعادة ما يُستحضر السؤال حول قيمة الفلسفة، والحديث عن قيمة الفلسفة ظهر في الأوساط الفكريَّة بعد انفصال العلوم واستقلالها عن الفلسفة.

ومن الضروري القول أن قيمة الفلسفة لا تتحدَّد باستقلال العلوم وانفصالها ذلك أن خصائص الفلسفة مثل التأمُّل والتساؤل والنَّقد والتفكير العقلي هو الباعث لنشأة العلوم الأخرى، والأبعد من ذلك أنَّ نشأة العلوم الوضعيَّة والطبيعية والتجريبية يرجع إلى جينات فلسفية، بيد أن هذه العلوم التي انفصلت اليوم عن الفلسفة منهجًا وموضُوعًا كانت في وقت ما مجرَّد رؤى فلسفية قبل أن تكون علميَّة. معنَى ذلك أنَّ هذه العلوم بمختلف أنواعها وفروعها كانت مجرّد فلسفات. فلو نظرنا مثلا إلى علم الطبيعيات مثلا نجد أنه لا يدخل ضمن الفيزياء الحديثة بقدر ما يرجع إلى الفلسفة، ولعلَّ السبب في ذلك راجع لكون الفلسفة تنطوي على تاريخها الخاص وتشترك في نشأة العلوم الأخرى.

ثمّ لا يُمكن إنكار دور الفلسفة في التَّطور الحضاري والعلمي، فلا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن نجد حضارة بمعزل عن ممارسة التفكير والتَّفلسُف والاستشكال والنَّقد، وقيمة الفلسفة تتجلَّى تحديدًا في أنها تتناول كل المواضيع التي يُمكن للإنسان والذهن البشري البحث فيها، فبالفلسفة يعرف الإنسان ذاته ويُقوّي ملكاته،وهي بهذا المنظور فرع مُكمِّل لمختلف العلوم الأخرى.

وتظهر قيمة الفلسفة جليًّا من خلال استعمال التفلسُف الذي يُمكِّن الإنسان من تحليل القضايا وهموم اليومي بيد أنّ الروح الفلسفية هو رغبة جامحة في البحث والتساؤُل ولا تُظهر الفلسفة أي آثار أو علامات للإقناع أو الوصُول إلى حلٍّ نهائي. ذلك أنَّ الفلسفة ترفض التَّعيين الذي يسير عامة الناس وهي تدّق بين لحظة وأخرى ناقُوسًا تعلن من خلاله أن الإنسان هو «سيّد المعنَى» وأنّه الباحث دومًا عن «لماذَا» وأنّه رجل التجديد والتفكير والابتكار والتأمل الحُرّ والنقد البنَّاء.

إنَّ رهانات التَّفلسُف في مجرى الحياة اليومية هو توسيعٌ لدائرة معارفنا وتحرُّرٌ من أغلال الظَّن والقناعات والأوهام، وهي -أي الفلسفة- لا تُحقِّق لنا هذه القيمة فحسب؛ بقدر ما تساهم في تحقيق بُعدًا عمليًّا، ذلك أن الحكمة في جوهرها وحقيقتها استقامة للسلوك وطهارة للنفس ومعرفة للفضيلة.

2) النقد والمساءَلة كقيمة للفلسفة:

تتجلَّى قيمة الفلسفة في ممارسة النَّقد عبر استجلاء التحليل المؤدي للفهم، بيد أن عملية التحليل التي يستقر عندها الفيلسوف يتخللها نوع من النقد والمساءلة الجريئة كرفض لكل الصور السلبية السائدة في المجتمع والظاهرة في سلوك الإنسان، فالتحليل النقدي هو ممارسة فلسفية للوصول إلى الحقيقة، والأبعد من ذلك يمكن القول أن المساءَلة تنطوي على ما يُمكن تسميته بالمحاكمة العقلية،ذلك أنَّ التساؤُل -طلب السؤال- ليس مجرّد إمكان لطلب المعرفة، بقدر ما هو حامل لقيمتين معرفيتين هما: الطَّلب؛ والتداعي. والفلسفة بإنبائها على السؤال فهي بمثابة شرط لحصول المعرفة، فلا معرفة بغير فلسفة وقياسًا على ذلك يصحُّ القول: لا معرفة بغير طلب ؛ أم التداعي فإن للسؤال قوة عجيبة لتوليد أسئلة أخرى، فالسؤال الواحد يُمكن أن يتحوَّل -أو يتوالد- لمجموعة من الأسئلة تشعُّبًا وتفرُّعًا (ينظر، طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة، ص12)

وعليه، يمكن القول أن الأسئلة الكبرى التي يواجهها الإنسان تجيب عنها الفلسفة ولولاها لظل الإنسان رهينة الجهل والتيه والانغلاق والحيرة، والفلسفة باعتبار أبرز خصائصها هي الشمولية فهي تمنح الإنسان رؤية كونية شاملة.

3) حاجة الإنسان إلى الفلسفة:

إنَّ قراءتنا لفلسفة الحضارة تجعلنا نُدرك أن الإنسان لا يمكنه العيش بمُعزل عن التفكير من حيث هو ظاهرة إنسانية وممارسة جريئة اتجاه ما يُفرزه العالم من غُموض، وكل الحضارات تمتلك ما يُعرف بأنموذج

ورؤية وتصور نحو العالم، فنجد على سبيل المثال لا الحصر أن الحضارة الغربية المعاصرة يُسيطر عليها ما يُعرف بأنموذج الاستهلاك وثقافة السوق، وهي نتيجة حتمية ومنطقية لما تفرزه الرأسمالية، في حين أن حضارة القرون الوسطى كانت تمتلك أنموذجًا ورؤية روحانية تتميز بسيطرة الروح الديني متجسِّدة في الكنسية، ولا ننكر أيضا تميز هذا العصر بالروح العلمية والتفكير الوضعِي.

لهذا، يمكننا القول أن إنسان اليوم، ونقصد هنا الإنسان المعاصر على وجه التخصيص، بحاجة ماسَّة إلى الفلسفة، وتكمن هذه الحاجة في كثرة الأوهام التي باتت تُزرع في عقل الإنسان جهلاً منه أو استغلالاً واستعبَادًا له. ويمكن للفلسفة بفضل احتوائها على النقد والمساءَلة الجريئة أن تحرِّر الإنسان من قيود الضعف والهوان. كما تزودنا الفلسفة بالروح العلمية والبحثية وتبعث في الإنسان بُعدًا أخلاقيًّا.